ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعني هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبِّه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحفْظ النوع ، فلا ينبغي أنْ تتعدى ماجعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْرى لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا.. ⑧﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أدرْ وجهك عنى فإنِّى لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أوَ عَدَمُ حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . يعنى أحِبَّ أو اكره كما شئْتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التى يصفُها البعض بملْء فيه يقول : غريزة بهيمية .. سبحان الله ألاَ تستحى أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلَّم ، وهى أفهم لهذه الغريزة منك ، ألاَ تراها بمجرد أن يُخصِّب الذكَر أنثاه

(١) شناه وشَنِئَه شنآناً : أبغضه وكرهه . والشانىء : المبغض . [القاموس القويم ١/٣٥٧] وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكّنه من نفسـها إذا ما حملَتْ ، فى حين أنك تبالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فيـها انطلاقاً يُخرجها عن هدفـها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وألاّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أدْنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس فى الحيوان يقال كذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدى مهمتها فى حياتك ؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظِّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً فى غريزة الطعام والشراب : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وقال فى غريزة حب الاستطلاع : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] وهكذا فى كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاّ تتعداها .

لذلك قلنا فى صفات الإيمان وفى صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] لأنهم يضعون كل غريزة فى موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وكان الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذى يضعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفـرع عن هذه المسـألة مسـألة ردّ العقـوبة إذا اعتُـدى عليك : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠) ﴾ [الحج] الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعـها وخلَجاتـها ؛ لذلك أباح لك إن اعـتدى عليك أنْ تردّ الاعـتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغـضب فى نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ فى ردّ العقـوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهى المسـألة عند هذا الحـد ولا تتفـاقم ، فـمَنْ ضـربك ضـربة فلك أنْ تُـنفِّس عن نفسك وتضـربه مثلـها ، لك ذلك ، لكن تـذكَّر المـثليـة هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبـط هذه المثلية فتردّ الضـربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحدَّة انفعالك في الرد كحدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ فى ردِّك نتـيجـةَ غـضب ، ماذا تفـعل ؟ أتسـمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يُلجـئك لمثل هذه المتـاهة ، ولك فى التسامح سـعَة ، وفى قول الله بعدها : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قـصة المرابى اليهـودى الذى قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت فى السـداد أشتـرط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحـمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعـه الدائن إلى القاضى وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القـاضى : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لـكن بضـربة واحدة بالسكـين تأخذ رطـلاً ، إنْ زاد أو نقص أخـذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

لذلك ، فالآية التي معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] واحدة بواحدة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] يعني : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] ينصره على المعتدي الذي لم يرتَض حكم الله في رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ في قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج] مع أن الصفة التي تناسب النُّصْرة أن يقول قوي عزيز ؛ لأن النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التي تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] فما دُمْتَ تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتي النتيجة كما قال ربك عز وجل : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسي والتلاحم الإيماني ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] يعنى ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التى تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج]

يولج الليل يعنى : يُدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر اللَيل ؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منها يسعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أو ننقص فى ظرف الأحداث نزيد وننقص فى الأحداث نفسها .

ثم تُذيِّل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شىء والقول شىء آخر ، لا ؛ لأن

العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدى مهمتها فهى تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقي الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾ [الصف]

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان فى الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذى لا يعمل إلا عدة مرات فى اليوم كله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ۝٦٢ ﴾ [الحج] أى الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ۝٦٢ ﴾ [الحج] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سوى الله ـ عز وجل ـ يتغير ، وهو سبحانه الذى يُغيِّر ولا يتغير ؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

وما دام أن ربك ـ عز وجل ـ هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكى اضحك واطمئن ؛ لأنك ابن أغيار ، وفى دنيا أغيار لا تثبت على شيء ؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة فى حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه !! نقول له : وهل تريدها كاملة ؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء ؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا تنتظر إنْ وصلْتَ إلى القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع ؛

لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب فى الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذى لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٢)﴾ [الحج] كل ما تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يَبْطُل ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء] يعنى : يزول ولا يثبت أبداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج] العلى يعنى : كل خَلْقه دونه . وكبير يعنى : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ .. (٦٣)﴾ [الحج] إنْ كانت للأمر الحِسِّى الذى تراه العين ،

فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذى لا يُدرك بالعين فهى بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذى يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ﴿٦٣﴾﴾ [الحج] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكوَّن هذا الماء فى طبقات الجو ؟ ولماذا نزل فى هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات في تكوين المطر ؟

إذن : رأيت من المطر ظاهره ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق ـ عز وجل ـ مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذى ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء فى غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب .. الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضَرَّةً .. (٦٣)﴾ [الحج] يعني : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان في هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْوِ ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التي كوَّنَتْ هذا النبات ؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البذور كانت موجودة في التربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شيء ، وإنْ مرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك نُسمِّي هذا النبات (العِذْى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها - لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التي أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج] اللطْف هو دقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً في إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقَّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشيء كلما لَطُف عَنُف ، في حين يظن البعض أن الشيء الكبير هو القوي ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشيء

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، ألاَ ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دَقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هى هيِّنة صغيرة ؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذى لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمى نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت فى الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمى نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذى يدخل فى الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعنى : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ؛ يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج] بعد قوله : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ﴿٦٣﴾﴾ [الحج] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ.. (٤)﴾ [الرعد]

فالأرض تصبح مُخضَرَّةً من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته فى مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج]

ولدقَّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية فى التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦٤)﴾

فما فى السموات وما فى الأرض مِلْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىٌّ عنها وغنىٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)﴾ [الحج]

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملَّكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غِناه لا يعود